الكلب..

هشام عيد

هذا أنا..

للعام الثاني على التوالي، توليـاني صـاحبتا الوجه الـصبوح والتعامل الراقي، الكاتبة المُبدعة "رشا شمس" ومدير وصـاحب دار الشهد للنشر والتوزيع "نهى محمود" مؤسِسَتا مُبادرة نـساء مُبـدعات للعمـل الادبـي، شـرف المـشاركة في المبـادرة. تلـك التجربـة التي سأبقى فخورًا بها ما حييت؛ فأن يـشارك المرء في مُبادرة بهـذا النـضج، تعـتلج بكـل صـنوف البـوح والإبـداع، بعـد مماحصة ودقة اختيار لهو شرف أنا أشد منهما حرصًا عليه وفخرًا بـه، ونظـرًا لعـدم اكتراثـي بتـصنيف الأدب القـائم علـى النـوع فستجدني للمرة الثانية أكتب عن الإنسان.. من حيث هـو إنسان، عاصـفًا بفكـرة أدب النـساء، مُتمـردًا علـى فكـرة حبـسهن في قيـد التصنيف خارجًا، كما اتهموني، عـن لياقة الحديث إلى النساء.

أتمنى ان يجد قارئ هذه المجموعة الإنسان، بضعفه وقهره وعنفوان قوته.. وهفواته التي أقبلها بصدر رحب.. وسُمُوه الذي يرتبط بكونه إنسانا لا بكونه ذكرًا أو أنثى.

هشام عيد

مروة عبد الهادي

الكلب

كلبان مُلتصقان، كائنان قادران على خلق المتعة في أرض جافة، المنطق عاجز عن إصلاح العالم.. العابرون نادرون. بدأ الصراع خافتًا ثم استبدت حدته. ضعفُ الخصوم وقلة حيلتهم منحت الحشد جسارة في ساحة الإدعاءات. الشارع الترابي كابي اللون إلا من إضاءة خافتة تبعثها مصابيح أرهقها التراب والوهن، وعلى جانب غير خفي كان كلبان قد بدآ التحامًا نادتهما الطبيعة إلى بوادره منذ ثلاثة أيام خلت بجوار ممر مائي آسن، عيونهما الوسنانة عكستا متعة هادئة ناسبت هدوء الفجر. حوَّمت حولهما مجموعة أخرى توقفت عن الصراع حين اعتلى المُختار عرشَ السلطنة.

المكان قفر كعادته، خالٍ من الأمل ومن احتمالات المطر في ذلك القيظ الشديد. الوجوه القليلة التي تمر تعلوها الكآبة والملل، والثبات أيضًا. في هذه المنطقة النائية قلَّما عاشت البهجة، الكائن الوحيد الذي يتمتع بالحياة هاهنا هو الضجر، وجوه أهل هذه القرية عابسة، أعمالهم التي يكدُّون فيها كثيرًا ويكسبون منها القليل مضجرة. معظمهم يعملون في البناء ومحاجر الأسمنت.. لا تخلو ذرة واحدة من أرواحهم من جفاف

الأسمنت ورائحته ولونه.. بياضه المتشقق. يقول المهندس المشرف على مشروع تفجير المحاجر

" إنها أعمال ملوثة للبيئة.. وللقلوب"

صبغت الشمس والرياح وجوههم بمسحة كالحة. نحت المحاجر، تفتيت الصخر، حرقه، تحميل شكائر الأسمنت، تشوينها فوق المراكب، عملٌ مرهق مضن وجاف، لا لهو فيه.. وفي بيوتهم هم أيضًا مُجهدون وعابسون.. نساؤهم أيضًا مُجهدات مرهقات، لا يشغلهن إلا توفير ما تيسَّر من الطعام ولوك الحكايات البائسة، يقبلن ما يجدن ويُمررن الحياة من بين أسمام الخياط، يبنين من القش آمالًا ويقنعون بالفتات ويُضرَبن لأتفه الأسباب.

انطلقت الشرارة حين ركل الكلبين أحدُ المارة في قسوة فطاحا ساقطين، تبعثرت الكلاب المرافقة، لم يسقطا في الممر المائي كما أراد. ركلة نقلت العابرين من مجرد المشاهدة إلى المشاركة: راع المشهد خبازًا كان يمر بالصدفة فحطَّ طاولة الخبز على طاولة المقهى وتصدَّى بجسمه الفحل للوحشين الفاسقين، بحث عن عصا ليضربهما في نقطة التلاقي مُتقمصًا روح الإسكندر الذي حلَّ العقدة التي حار في فكها العلماء والفلاسفة بالمنشار.. في عين الكلبين حيرة تمتزج باستعطاف.. هربت اللحظة التي كان من المفترض أن تكون متعة.

شيخ أحمر اللحية قصير الثوب يمر، كان ذاهبًا ليؤذن لصلاة الفجر، توقف ليُخلص العالم من الدنس. قلبه كان مليئا بالإيمان والإحباط؛ فشل خلف فشل يرزخ تحته قلبه، أطفأ المالُ غليل آباء الصبية لكنه لم يرو ظمأ جسدها الغض.

وعلى المقهى سائقا توكتوك، حيث ألقى الحظ العاثر الكلبين التعسين. يتربص أحدهما بلحظة خروج المهندس، وآخر كالظل أو كالعدم، لم يصحبه هذه الليلة إلا ليستوثقَ أن صاحبه سائق التوكتوك يمكن أن يرقى مراقي المهندسين. وتابعت الزوجة من شق شباك صغير الكلبين منذ البداية، يروق لها دائمًا حسن تودد الكلب قبل التلاقي، صبره على تدلل الكلبة حتى ترضخ، تثبيته لها بقائمتيه الأماميتين، لكنها تكره سكونه وثباته الهندسي بعد الالتحام، تُفضل عليه جموح القط وقسوة قبضه على رأس الوليفة.. غلبت على تصرفات عاشقها وصوته الإدعاء والتصنُّع عندما رآها.

أما الإسكندر الخباز فكان في منتهى العزم على قتل الفتنة، تناسخ من مقاتل تاريخي عظيم إلى خباز ليس له من فتوة الماضي سوى جسده المهيب، يُعذبه إحساس بالذنب، كامنٌ منذ الصباح، أنه انتهك حدود المباح؛ إذ بدأ ليلته بمشاهدة مائة فيلم

"سكس"، استُدرج إليهم جميعًا رغم صدق نواياه في البداية بمشاهدة واحدٍ فقط، وجدهم أكثر تنوعًا وتفرعًا وألقًا من أهداف كرة القدم، لم يكن من سبيل لوقف اللهاث إلا الاستمناء في الصباح.

ومن ليلة عمل مضنية امتدت منذ الصباح عاد شاب مرهقًا يعد الخطى إلى السرير.. في قلبه جذوة خافتة تعشق إصلاح العالم، تبحث في الناس عن سر تفردهم.. يكره إجماع القطعان، يدرس بكلية دار العلوم نهارًا ويعمل ليلًا مشرف أمن في إحدى صوامع الأسمنت.

خطوط متفرقة متفاوتة تجمعت كأسهم من طرق مختلفة حول دائرة داخل قطرها..كلبان ملتصقان.

عندما همَّ الخباز بفصل الكلبين بيديه القويتين استوقفه صراخ الفتى من بعيد فثبت مندهشًا، خجل عينيه وتردده كانا شاذَّين مع هيئته الصلبة.. نظر للشاب صاحب الصوت نظرة استنكار:

"ألا ترى ما يفعلان؟"

"ماذا يفعلان!.. يفعلان مثل ما يفعل الناس".

قال الشيخ اللحيم ذو اللحية الحمراء:

"عيانًا بيانًا!! هذا لا يصح"

" أتريده يا سيدنا أن يعقد عليها ويختلي بها في شقة"

لم يجد الشيخ ردًا فصمت لكن العاشق التوكتوكي لم يشأْ أن يفوِّت الفرصة أمام عشيقته

" الحب حلو، الحب مش عيب، بس يتدارى، يلعبها صح"

" إنهما كلبان.. يستغرق الأمر من عشرين إلى أربعين دقيقة"

انتفض الخباز، تذكَّر تصلبه المرير لساعات أمام الشاشة.

" وتريدنا أن نقف لنتفرج كل هذا الوقت؟"

" بل احمل خبزك وامض إلى حال سبيلك، دع هَدي الله يمضي في خلقه"

قال الشيخ " الكلاب نجس والصمت على المنكر منكر"

" لقد ذُكر الكلب في القرآن ممجدًا بين أتقياء يا سيدي".

بينما يتبادلون الحديث لم يتوقفوا عن دفع الكلبين وضربهما، عينا الكلبين حائرتان، جسداهما أيضًا، يتحركان بغير توافق.. لا يستطيعان فكاكًا ولا يستطيعان هربًا.

تلظى الغضب في عين الخباز، تقبب الغيظ داخله كرغيف داخل فرن.. تكلَّم أخيرًا صديقُ التوكتوكي يسأل الفتى عن الخلاص، لم يأت ليشاهد هذين الكلبين، خجلى، طالبت عيناه بشرح مبسطٍ وافٍ،

لماذا يحتملان كل ذلك العناء؟ راق السؤال الفتى فحاضر الحشد:

" لن يتم خلاصهما إلا بعد أن تنفض نقاط الكرة المنتفخة في قضيب الكلب داخل مهبل الكلبة..إنهم لا يقذفون مثلكم.. تلك حكمة الله حتى لا ينزلق منيه خارجها؟"

تبادل التوكتوكي حين سمع هذا الكلام نظرة مبتسمة مع عاشقته، استطاع أن يستجمع ابتسامة عينيها.. بينهما من الأسرار ما يسمح لهما بالوصال مهما كان ما حولهما مضطربًا، ذكَّرته فورًا بدهشة ملامحها الجزلانة وخدر عينيها من قدرته على اللف والدوران والصعود والهبوط بالتوكتوك في أصعب الطرق، عشقها لقدرته الفائقة على اتخاذ مسالك جديدة، أحيانًا يسير مائلًا على طرف واحد في خطر لذيذ، مُسرعًا حين يخلو الطريق، مُبطئًا حين يحلو الكلام، قابضًا على رأس الممر حين يؤلمه المروق.

لم يعد الجدال مفيدًا مع فتى يمتلك الردود، المدهش أن اقتناعهم زادهم صلفًا، علا الصوت واشتعل الحماس.. انهال الشيخ بالعصا على الكلبين وركلهما مرة أخرى صاحب الركلة الأولى، أقوى هذه المرة.. شعر بالتأييد؛ تبرَّع القهوجي بسطل ماء مغلي سكبه فوق "ولاد الكلاب الذين تسببوا في تشاجر الرجال" ساور الزوجة في الأعلى قلق أن ينتبه الزوج فيرى الشاب الذي شكَّ

فيه سابقًا، أشارت إلى العاشق فسكت وانسحب. لم يتوقف الفتى عن الدفع والنقاش ولم يعيه اجتماعهم عليه مُحدَّثًا إياهم بلسانه ويديه بينما قلبه متعلق بالجسدين المدحورين، قال الشيخ:

"لقد حكم الله على الكلاب بالفضيحة منذ عهد نوح"

" لابد أن الشيطان أيضًا قد اجتهد كثيرا ليَليَ الأغبياءُ أمانة الأديان"

"أتتهمني بالغباء؟"

" بل بالجرأة على الفُتيا بوأد الحياة لمجرد أنك مؤذِّن بيده مفتاح مسجد"

لم ترُقْ لأحد من المحيطين جرأة الشاب على الشيخ، غموض رده الأخير.. لم ينتظر الخباز السكندري أكثر، بدأت معركة غير متكافئة بين الفتيين.. خرج الزوج المهندس.. لم يعبأ بكل هذا الصياح والصخب حول منزله، مرَّ متنزهًا عن هذه الغوغاء، دلف العاشق إلى البيت مُستغلًا مواتاة الفرصة وانشغال الجميع، وجد صاحبه نفسه وحده في معركة لا تعنيه فانصرف، تمامًا كما انصرفوا جميعًا عن الكلاب. لم يعره العاشق حتى الاهتمام بإلقاء السلام..

اشتد الصراع ولم يقوَ جسد الفتى على مضارعة بأس الخباز، يداه قويتان صارمتان، صنع بأسهما أجيجُ النار وجذب الخبز الملتهب "بالمطرحة" ورصه متوهجًا فوق "طوالي الخشب"، أما الفتى فقد كانت روحه في هذه اللحظة المتيقنة من جدواها قادرة على مواجهة كل جيوش الإسكندر، ثبات يقينه جعل قلبه أقوى.. غير أن جسده كان مُرهقًا؛ وقع من دفعة هائلة بيد الخباز تحت أقدام الكلبين، شعر بهزيمة ساحقة حين التقت عيناه بالكلبين وهو على الأرض.. أراد أن يمنحهما نظرة اعتذار، عن عجز المنطق عن إصلاح العالم.. كادت ركلة تالية أن تُسقطه في الماء الآسن، وهنت مقاومته تمامًا.. التحم عواء الكلبين بصياح الشيخ وسباب القهوجي.. ولم يكن صامتًا غير الصراع القاس غير المتكافئ بين الشابين... وأوقف الصراع كله ضربة عصا خاطئة... لم يقصد الشيخ المؤذن رأسه، بل قصد الكلبين.. لكن العصا الغليظة أردت الفتى قتيلًا.

و أهو ده اللي صار!